

يا الله، يا علي، يا عظيم، يا حليم، يا عليم... أنت ربّي، وعالمك حسي، فنعم الرب ربّي، ونعم الحسب حسي. تنصّر من تشاء وأنت العزيز الرحيم؛ نسألك العظمة في الحركات والسكنات والكلمات والإرادات والخطرات... من الشكوك والظنون، والأوهام السائرة للقلوب عن مطالعة الغيوب، فقد ﴿ابتلّي المؤمنين وزلزلوا زلزالاً شديداً﴾.

الآيتان ٢٨٥-٢٨٦

آخر آيتين من سورة البقرة، الإيمان بالرسول والتكليف بالوسع

﴿أَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يَكْفُفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وَسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفُ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾.

أسباب النزول والمناسبة

المناسبة: بدأ الله تعالى هذه السورة بالكلام على القرآن والمؤمنين ومقارنتهم بالكافرين، ولا سيما أخبار اليهود، ثم أرشد تعالى إلى كثير من الأحكام كالصيام والحج والطلاق، ومحاجة الضالين، وختم السورة بالكلام عن إيمان الرسول محمد ﷺ والمؤمنين بالكتب السماوية وبالرسول الكرام دون تفريق أو تفضيل في أصل الرسالة والتشريع، وكان مسك الختام إبداء ما تفضل الله به على هذه الأمة من التكليف السمحة السهلة التي لا ضيق ولا حرج فيها، وأن الإيمان وأهله منصورون على الكفر وأعوانه، إذا صحّ وصدقت العزيمة وتوافر الإخلاص والصدق وتنفيذ الأحكام الشرعية.

المعنى العام

ورد في فضل هاتين الآيتين عدد من الأحاديث، منها ما رواه الشيخان وأحمد وغيرهما عن عبد الله بن مسعود قال: قال: رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ بِالْآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي لَيْلَةِ كَفْتَاهُ»^(١). ومنها الدعاء: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ أي: من التكليف والمصائب والبلاء، لا تبتلينا بما لا قبل لنا به، فإذا دعوت بذلك «قَالَ اللَّهُ: نَعَمْ»، وفي الحديث الآخر: «قَالَ اللَّهُ: قَدْ فَعَلْتُ».

(١) رواه البخاري في صحيحه، عن أبي مسعود، حديث رقم: ٥٠٠٩، كتاب: فضائل القرآن، باب: فضل سورة البقرة.

وروى^(١) مسلم عن عبد الله بن مسعود قال: لما أسري برسول الله ﷺ، انتهى به إلى سدرة المنتهى، وهي في السماء السادسة، إليها ينتهي ما يُعْرَجُ به من الأرض فيقبض منها، وإليها ينتهي ما يُهْبَطُ به من فوقها فيقبض منها، قال: ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾^(٢) قال: فَرَأَسَ من ذهب، قال: «وَأَعْطَى رسول الله ﷺ ثلاثاً: أعطى الصلوات الخمس، وأعطى خواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لم يشرك بالله من أُمته شيئاً المقحّمات»^(٣).

وروى أحمد عن عقبة بن عامر الجهني قال: قال رسول الله ﷺ: «(اقْرَأِ الْآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، فَإِنِّي أُعْطِيَهُمَا مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ الْعَرْشِ)»^(٤).

وقد تقدّم في فضائل «الفاتحة» عن ابن عباس رضيه الله عنه، قال: بَيْنَمَا جِبْرِيلُ قَاعِدٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، سَمِعَ نَقِيصًا^(٥) مِنْ فَوْقِهِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: "هَذَا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فَتُحِ الْيَوْمَ لَمْ يَفْتَحْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ، فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ، فَقَالَ: هَذَا مَلَكٌ نَزَلَ إِلَى الْأَرْضِ لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ، فَسَلَّمَ، وَقَالَ: أَبَشِّرْ بُنُورِينَ أَوْتِيَهُمَا لَمْ يُؤْتِيَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ: فَاتَّحَتِ الْكِتَابِ، وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلَّا أُعْطِيَتْهُ"^(٦).

ف قوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ﴾ إخبار عن النبي ﷺ بذلك، روى ابن جرير عن قتادة قال: ذكر لنا أنّ رسول الله ﷺ قال لما نزلت عليه هذه الآية: «وَيَحْقُّ لَهُ أَنْ يُؤْمَنَ»، وقد روى الحاكم في مستدركه عن أنس بن مالك قال: لما نزلت هذه الآية على النبي ﷺ قال النبي ﷺ: «حَقٌّ لَهُ أَنْ يُؤْمَنَ»، ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

وقوله: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ عطف على «الرسول»، ثم أخبر عن الجميع فقال سبحانه: ﴿كُلُّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفَرِقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْ رُّسُلِهِ﴾ فالمؤمنون يؤمنون بأنّ الله واحد أحد، فرد صمد، لا إله غيره ولا رب سواه، ويصدّقون بجميع الأنبياء والرسول، والكتب المنزلة من السماء على عباد الله المرسلين والأنبياء، لا يفرّقون بين أحد منهم، فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، بل الجميع عندهم صادقون بازون، راشدون مهديون، هادون إلى سبيل الخير، وإن كان بعضهم ينسخ شريعة بعض بإذن الله، حتى نسخ الجميع بشرع سيّدنا محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، الذي تقوم الساعة على شريعته، ولا تزال طائفة من أُمته على الحق ظاهرين.

قوله تعالى ﴿كُلُّ آمَنَ﴾ أي: تفيد مراتب الإيمان والإيقان: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ﴾ إيمان تحقيق وشهود، والمؤمنون كلّ على قدر إيقان، كلّ واحد منهم آمن بالله على ما يليق به من شهود وعيان، أو دليل وبرهان ولكن شتان بين إيمان وإيمان، الكل آمنوا استدلالاً، وأنت يا محمد آمنّت وصلاً.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أي: سمعنا قولك يا ربّنا وفهمناه، وقننا به وامتلنا العمل بمقتضاه، ﴿غُفِرَ لَكَ رَبَّنَا﴾ سؤال للمغفرة والرحمة والطف، ﴿وَالَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ أي إليك المرجع والمآب يوم الحساب.

(١) ورواه أيضاً أحمد، وسأيت لفظه بتمامه مرة أخرى في تفسير الآية ١٦ من سورة النجم.

(٢) سورة النجم، الآية: ١٦.

(٣) «المقحّمات»: بكسر الحاء أي الذنوب العظام التي تقحم أصحابها في النار، أي: تلقى فيهم فيها.

(٤) وإسناده حسن ولم يخرجوه في كتبهم.

(٥) نقيصاً: المراد صوتاً عالياً قوياً، وهو الصوت الذي يحدث عند فتح الباب بقوة.

(٦) رواه مسلم في صحيحه، عن ابن عباس، كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل الفاتحة، وخواتيم سورة البقرة، حديث رقم: ٨٠٦.

وقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي: لا يكلف أحداً فوق طاقته ولا حتى طاقته بل وسعه، وهذا من لطفه تعالى بخلقه، ورأفته بهم، وإحسانه إليهم، وهذه هي النسخة الرافعة لما كان أشفق منه الصحابة في قوله: ﴿وَإِنْ تُبَدُّوْا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوْهُ يُحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ أي: هو وإن حاسب وسأل، لكن لا يعذب إلا بما يملك الشخص دفعه، فأما ما لا يملك دفعه من وسوسة النفس وحديثها، فهذا لا يكلف به الإنسان، وكرهية الوسوسة السيئة من الإيمان كما سيأتي.

وقوله: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ أي: من خير ﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ أي: من شر وذلك في الأعمال التي تدخل تحت التكليف، ثم قال تعالى مرشداً عباده إلى سؤاله، وقد تكفل لهم بالإجابة كما أرشدهم وعلمهم أن يقولوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ أي: إن تركنا فريضاً على جهة النسيان، أو فعلنا حراماً كذلك، أو أخطأنا الصواب في العمل جهلاً منا بوجهه الشرعي. روى ابن ماجه في سننه وابن حبان في صحيحه والطبراني عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ وَضَعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنَّسْيَانَ وَمَا اسْتَكْرَهُوا عَلَيْهِ»^(١). فهذا من خصائص الأمة المحمدية التي من الله بها عليها اكراماً لرسول الله ﷺ، فإن غير هذه الأمة كانوا يؤاخذون به، فدل على عدم امتناعه.

قال أبو بكر الهذلي: فذكرت ذلك للحسن فقال: أجل، أما تقرأ بذلك قرأنا ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾.

وقوله: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ أي: لا تكلفنا من الأعمال الشاقة وإن أطقناها، كما شرعته للأمم الماضية قبلنا من الأغلال والأصار التي كانت عليهم، التي بعثت نبيك محمداً ﷺ نبي الرحمة بوضعه، في شرعه الذي أرسلته به، من الدين الحنيف السهل السمح.

وقد ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة أنه قال بعد قراءته كل فقرة من هذا الدعاء: «قَالَ: نَعَمْ» يعني: أن الله تعالى يقول ذلك جواباً لدعاء عبده، كما جاء في جميع الروايات لحديث ابن عباس أنه قال كذلك: «قَالَ: قَدْ فَعَلْتُ».

وقوله: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ أي: من التكليف والمصائب والبلاء، لا تبتلينا بما لا قبل لنا به، «قال الله: نعم»، وفي الحديث الآخر: «قال الله: قد فعلت».

وقوله: ﴿وَاعْفُ عَنَّا﴾ أي: فيما بيننا وبينك، ما تعلمه من تقصيرنا وزللنا ﴿وَاعْفُ لَنَا﴾ أي: فيما بيننا وبين عبادك، فلا تظهرهم على مساوينا وأعمالنا القبيحة ﴿وَإِزْحَمْنَا﴾ أي: فيما يستقبل، فلا توقعنا بتوفيقك في ذنب آخر واقض حوائجنا لأن الرحمة هي قضاء الحوائج، ولهذا قالوا: إن المذنب محتاج إلى ثلاثة أشياء، أن يعفو الله عنه فيما بينه وبينه، وأن يستره عن عباده فلا يفضحه به بينهم، وأن يعصمه فلا يوقعه في نظيره.

وقوله: ﴿أَنْتَ مَوْلَانَا﴾ أي: أنت ولينا وناصرنا، وعليك توكلنا، وأنت المستعان وعليك التكلان، ولا حول لنا ولا قوة إلا بك ﴿فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أي: الذين جحدوا دينك، وأنكروا وحدانيتك ورسالة نبيك، وعبدوا غيرك، وأشركوا معك من عبادك، فانصرنا عليهم، واجعل لنا العاقبة عليهم في الدنيا والآخرة، قال الله: نعم، وفي الحديث الذي رواه مسلم عن ابن عباس: «قال الله: قد فعلت». فالله ناصر عباده المؤمنين لا محالة.

(١) رواه ابن ماجه في سننه، عن ابن عباس، حديث رقم: ٢٠٤٥، كتاب: الطلاق، باب: طلاق المكره والناسي، الحديث إسناده صحيح.

يقول الحق ﷻ: ﴿أَمِنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ﴾ إيمان تحقيق وشهود، والمؤمنون كل على قدر إيقانه، كل واحد منهم آمن بالله على ما يليق به من شهود وعيان، أو دليل وبرهان، وآمن بملائكته وأتباعهم عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وكتبه وأتمها كلام الله، مشتملة على أمر ونهي ووعد ووعيد وقصص وأخبار، ما عرف منها كالتوراة والإنجيل والزبور والفرقان، وجب الإيمان به بعينه، وما لم يعرف وجب الإيمان به في الجملة، ورسله وأتباعهم بشر متصفون بالكالات، منزّهون عن النقائص، كما يليق بحالهم، حال كون الرسول والمؤمنون قائلين لا نفرّق بين أحد من رسله أو: ﴿لَا يُفَرِّقُ﴾ كل منهم بين أحد من رسله بأن يصدّقوا ببعض، دون البعض كما فرقت اليهود والنصارى. ﴿وَقَالُوا﴾ أي المؤمنون سمعنا وأطعنا أي: سمعنا قولك وأطعنا أمرك، نطلب غفرانك يا ربنا وإليك المصير بالبعث والنشور، وهذا إقرار منهم بالبعث الذي هو من تمام أركان الإيمان.

فما تحقق إيمانهم، وتيقّن إدعانهم، خفف الله عنهم بقوله: ﴿لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي: إلا ما في طاقتها وتسعه قدرتها. وهذا يدل على عدم وقوع التكليف بالمحال ولا يدل على امتناعه. أمّا المحال العاديّ فجائز التكليف به، وأمّا المحال العقليّ فيمتنع، إذ لا يتصوّر وقوعه، وإذا كلف الله عباده بما يطيقونه، فكّل نفس ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ من الخير فتوفى أجره على التمام، ﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ من الشرّ، فترى جزاءه، إلا أن يعفو ذو الجلال والإكرام.

ثم قالوا في تمام دعائهم: ﴿رَبَّنَا لَا تَوَاضِعْنَا لِنَفْسِنَا أَوْ أَخْطَاْنَا﴾، أي: لا تؤاخذنا بما أدّى بنا إلى نسيان أو خطأ من تفرّط أو قلة مبالاة، وفي الحديث: «إِنَّ اللَّهَ رَفَعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنَّسْيَانَ وَمَا حَدَّثَتْ بِهِ نَفْسُهَا وَمَا اسْتَكْرَهُوا عَلَيْهِ»^(١). ويجوز أن يراد نفس الخطأ والنسيان إذ لا تمتنع المؤاخذة بهما عقلاً، فإنّ الذنوب كالسموم، فكما أنّ تناول السم يؤدّي إلى الهلاك، وإن كان خطأ. فتعاطي الذنوب لا يبعد أن يفضي إلى العقاب، وإن لم يكن عزيمة، لكنّه تعالى وعد التجاوز عنه رحمة وفضلاً. ويجوز أن يدعوه الإنسان، استدامة واعتداداً بالنعمة فيه. ويؤيد ذلك مفهوم قوله ﷺ: «رَفَعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنَّسْيَانَ»، أي: فإنّ غير هذه الأمة كانوا يؤاخذون به، فدّل على عدم امتناعه.

ثم قالوا: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا﴾ أي: عهداً ثقيلاً يأصر ظهورنا، أي: يثقلها، فتعذّبنا بتركه وعدم حمله، ﴿كَمَا حَمَلْتُهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ مثل اليهود في تكليفهم بقتل الأنفس في التوبة، وقطع موضع النجاسة، وغير ذلك من التكليف الشاقّة، ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ من التكليف التي لا تسعها طاقتنا، وهذا يدل على جواز التكليف بما لا يطاق عادة، وإلا لما سئل التخلص منه. قال قتادة: معناه لا تشدد علينا كما تشدّدت على من كان قبلنا، وقال الطعاع: معناه لا تحمّلنا من الأعمال ما لا نطيع.

﴿وَاغْفِرْ عَنَّا﴾ أي: امح ذنوبنا، ﴿وَاغْفِرْ لَنَا﴾ أي: استر عيوبنا، ﴿وَاَرْحَمْنَا﴾ أي: تعطف علينا، فاعف عن الصغائر، واغفر لنا الكبائر، وارحمنا عند الشدائد والحسرات، ﴿أَنْتَ مَوْلَانَا﴾ أي: سيّدنا وناصرنا، ﴿فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ فإنّ من شأن المولى أن ينصر مواليه على الأعداء.

(١) رواه ابن ماجة في سننه، عن ابن عباس، حديث رقم: ٢٠٤٥، كتاب: الطلاق، باب: طلاق المكره والناسي، الحديث إسناده صحيح.

من هدي الآيتين:

١. هذه شهادة الحق - سبحانه - لنبيه ﷺ بالإيمان، وذلك أتم له من إخباره عن نفسه بشهادته. ويقال هذا خطاب الحق معه ليلة المعراج على جهة تعظيم القدر فقال: ﴿أَمَّنَ الرَّسُولُ﴾، ولم يقل آمَنْتَ، كما تقول لعظيم الشأن من الناس: قال الشيخ، وأنت تريد قلت.

٢. تعليم هذا الدعاء واستحباب الدعاء به اقتداءً بالرسول ﷺ وأصحابه وقد ورد: أن من قرأ هاتين الآيتين عند النوم كفتاه ﴿أَمَّنَ الرَّسُولُ...﴾ السورة.

٣. تقرير أركان الإيمان وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وكذلك الإيمان باليوم الآخر والقدر خيره وشره.

٤. وجوب الإيمان بكافة الرسل وحرمة الإيمان ببعض وترك البعض وهو كفر والعياذ بالله تعالى.

٥. وجوب طاعة الله ورسوله والتسليم والرضا بما شرع الله ورسوله وحرمة رد شيء من ذلك.

٦. (وقالوا) أي المؤمنين سمعنا وأطعنا أي: سمعنا قولك وأطعنا أمرك، نطلب غفرانك يا ربنا وإليك المصير بالبعث والنشور، وهذا إقرار منهم بالبعث الذي هو من تمام أركان الإيمان. فلما تحقق إيمانهم، وتيقن إدعائهم، خفف الله عنهم بقوله: لا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

٧. من معاني ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، أن الله تعالى كلفنا أقل مما نطيق. فمثلاً طاقة الانسان أن يحمل مائة كيلو، فهذه الطاقة القصوى وفي وسعه حمل خمسين كيلو. فالله تعالى كلفنا بالوسع لا بالطاقة. فمثلاً كلفنا بخمس صلوات في اليوم الليلة ونحن نطيق أكثر لذلك ممّا من يصلي السنن والوتر. كلفنا بالزكاة ومقدارها ٢,٥٪ من المال الذي بلغ النصاب تحسب مرّة في السنة وممّا من يخرج الزكاة ويزيد عليها الصدقات. كلفنا بصيام شهر رمضان وممّا من يزيد على ذلك فيصوم الاثنين والخميس طيلة السنة. وكلفنا بالحجّ والعمرة مرّة واحدة في العمر وممّا من يحجّ ويعتمر مراراً. فالحمد لله الواسع الذي وسّع علينا وكلفنا وسعنا ولم يكلفنا طاقتنا. فمن لطفه بنا كانت هذه العبادات المخففة.

٨. رفع الحرج عن هذه الأمة رحمة بها.

٩. وعبر في جانب الخير بالكسب، وفي جانب الشر بالاكْتِسَاب، تعليمًا للأدب في نسبة الخير إلى الله، والشر إلى العبد. فتأمل.

١٠. وعبر عن الحسنه بكسب، لأن الحسنه توافق فطرة الانسان فيفعلها وهو فرح مرتاح، بخلاف السيئة التي تخالف فطرة الانسان السليم فيفعلها وهو حزين خائف فقال عنها اكتسبت.

١١. عدم المؤاخذه بالنسيان أو الخطأ فمن نسي وأكل أو شرب وهو صائم فلا إثم عليه أو أخطأ فلا إثم عليه إذا قتل.

١٢. مفهوم قوله ﷺ: ﴿رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأُ وَالنَّسْيَانُ﴾، أي: فإن غير هذه الأمة كانوا يؤاخذون به. فهذا من خصائص الأمة المحمّدية التي من الله بها عليها إكراماً لرسول الله ﷺ.

١٣. يفهم من سر الآية أن من شق عليه أمر من الأمور، أو عسرت عليه حاجة، أو نزلت به شدة أو بليّة، فليرجع إلى الله، ولينطرح بين يدي مولاه، وليعتقد أن الأمور كلّها بيده فإن الله تعالى لا يخليه من معونته ورفده، فيخفف عنه ما نزل به،

- أو يقويه على حمله، فإن الصحابة عليهم السلام لما شقت عليهم المحاسبة على الخواطر سأموا وأذعنوا لأمر مولاهم، فأنزل عليهم التخفيف، وأسقط عنهم في ذلك التكليف، وكل من رجع في أموره كلها إلى الله قضيت حوائجها كلها بالله.
١٤. قوله جل ذكره: ﴿رَبَّنَا لَا تَوَاضِعْنَا إِن نِّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾.
- فالأوامر المخففة لهذه الشريعة المحمدية جاءت مخففة بلطف عن شريعة موسى عليه السلام. فمثلاً:
- كان الرجل من بني إسرائيل إذا جاءت نجاسة على ثوبه فلا يطهر الثوب إلا بقص موضع النجاسة.
 - وكان إذا أتى ذنباً لا يتوب الله عليه إلا إذا كتب الذنب على باب بيته.
 - وكانت الأمم (السالفة) إذا أذنبوا احتاجوا إلى مضي مدة لقبول التوبة، وفي هذه الأمة قال صلى الله عليه وسلم: «الندم توبة».
 - وكان إذا وقعت حاجة كموه بلسان الوسطة. قالوا: «يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ»^(١). وهذه الأمة قال لهم: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾^(٢).
 - وكانت الأمم (السالفة) منهم من قال اجعل لنا إلهاً كما لهم آله، وهذه الأمة اختصت بإشراق أنوار توحيدهم، وخصائصهم أكثر من أن يأتي عليه الشرح.
 - ولما قالوا: ﴿وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ خسف الله ذنوبهم بدل خسف المتقدمين، فأبدل ذنوبهم حسنات بدل مسخهم، وأمطر عليهم الرحمة بدل ما أمطر على المتقدمين من الحجارة. وفي هذه الأمة قال لذلك ندعو بهذه الآية: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾^(٣) فهذا من لطف الله بهذه الأمة.
١٥. قوله جل ذكره: ﴿وَأَغْفِ عَنَّا﴾ - في الحال - ﴿وَأَغْفِرْ لَنَا﴾ - في المال.
١٦. العفو عن حديث النفس لنزول الآية فيه ما لم يتكلم المؤمن أو يعمل. لقوله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ نَفْسَهَا، مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَكَلِّمْ».
١٧. ﴿وَأَرْحَمْنَا﴾ في جميع الأحوال إذ ليس لنا أحد سواك، فأنت مولانا فاجعل النصر لنا على ما يشغلنا عنك.

الوسوسة وحديث النفس :

صاق الأمر على الصحابة فجاءوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وجثوا على الركب وقالوا: يا رسول الله نزلت عليك الآن آية لا نستطيعها. فعلمهم النبي صلى الله عليه وسلم دعاء: «سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا، غُفِرَ لَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ»^(٤). وقال: «لَا تَكُونُوا كَبَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ قَالُوا: «سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا» فقالت الصحابة: «سمعنا وأطعنا» ثم نزل البيان الإلهي ليخفف عنهم ويبيّن المعنى: ﴿لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾^(٥). أي إن الخطرات لا يحاسب عليها الله تعالى، ولكن إذا استمرت الخطرات وبنيت عليها وحدثت نفسك بها فالله يحاسبك، أما إذا كانت فكرة شيطانية صرفتها فالله تعالى لا يحاسبك عليها. وإن الله تعالى في الحديث القدسي يقول يَوْمَ الْقِيَامَةِ: «هَذَا يَوْمُ تُبْلَى فِيهِ السَّرَائِرُ وَتُخْرِجُ الصَّمَائِرُ وَأَنْ كُتَّابِي لَمْ يَكْتُبُوا إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْ أَعْمَالِكُمْ وَأَنَا الْمُطَّلِعُ عَلَى مَا لَمْ يَطْلَعُوا عَلَيْهِ وَلَمْ يُخْبِرُوهُ وَلَا كَتَبُوهُ فَأَنَا أُخْبِرُكُمْ بِذَلِكَ وَأَحْسِبُكُمْ عَلَيْهِ فَأَغْفِرُ لِمَنْ أَشَاءُ وَأُعَذِّبُ مَنْ أَشَاءُ»^(٦)، ومن هذا الحديث القدسي الشريف وهذا الاسم يجب أن نستشعر مبدأ المراقبة أي أن نراقب قلبك وفكرك والله يسمع ما تحدث به نفسك وإنه سبحانه يسمع ما تتلفظ به، حتى الأنين في المرض

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٣٤.

(٢) سورة غافر، الآية: ٦٠.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

(٤) رواه مسلم في صحيحه، عن أبي هريرة، حديث رقم: ١٢٥، كتاب: الإيمان، باب: بيان قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَبَدَّلُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوْنَ﴾.

(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

(٦) ذكره القرطبي في تفسيره، باب: سورة البقرة، الآية ٢٨٤، ج ٣، ص ٤٢٢.

يُكْتَبُ عَلَيْكَ، فسيّدنا أحمد بن حنبل رحمه الله لما سمع بذلك امتنع عن الأنين حتى لا يكون في صحيفته إلا مباح. فالوسوسة وحديث النفس شيء يهجم على القلب بغير اختيار الإنسان، ومن فضل الله تعالى ورحمته أن تجاوز عن ذلك ما لم يعمل به أو يتكلم، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «(إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ نَفْسُهَا، مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمَ)»^(١). والمراد به في (الأذكار): الخواطر وحديث النفس إذا لم يستقر ويستمر عليه صاحبه فمعفو عنه باتفاق العلماء؛ لأنه لا اختيار له في وقوعه ولا طريق له إلى الانفكاك عنه. وهذا العفو عن مثل هذه الخواطر وحديث النفس يظل باقياً ما دامت في تلك الحدود.

- قال العلماء: المراد به الخواطر التي لا تستقر. قالوا: وسواء كان ذلك خاطر غيبة أو كفراً أو غيره، فمن خطر له الكفر مجرد خطر من غير تعمد لتحصيله ثم صرفه في الحال فليس بكافر ولا شيء عليه اهـ.
- وقال العزّ بن عبد السلام في (قواعد الأحكام): لا أعرف في الوجود شيئاً أكثر تقلباً في الأحوال من القلوب، لكثرة ما يرد عليها من الخواطر والقصود، والكراهة والمحبة، والكفر والإيمان، والخضوع والخشوع، والخوف والرجاء، والأفراح والأحزان، والانقباض والانبساط، والارتفاع والانحطاط، والظنون والأوهام، والشكوك والعرفان، والنفور والإقبال، والسامة والملال، والخسران والندم، واستقباح الحسن واستحسان القبيح، ولكثرة تقلبها كقوليس كلاً يفعل اختياراً يقول: «(يَا مُقَلِّبِ الْقُلُوبِ، ثَبِّثْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ)»^(٢). وَكَانَتْ يَمِينُهُ صلى الله عليه وسلم «(لَا وَمُقَلِّبِ الْقُلُوبِ)»^(٣)، وَتَبَّيَّ الْقَلْبُ قَلْبًا لِقَلْبِهِ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ، وَلَا عِقَابَ عَلَى الْخَوَاطِرِ، وَلَا عَلَى حَدِيثِ النَّفْسِ لِعَلْبَتِهَا عَلَى النَّاسِ، وَلَا عَلَى مِيلِ الطَّبَعِ إِلَى الْحُسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ، إِذْ لَا تَكْلِيفَ بِمَا يَشُقُّ اجْتِنَابُهُ مَشَقَّةً فَادِحَةً، وَلَا بِمَا يُطَاقُ فِعْلُهُ وَلَا تَرْكُهُ»^(٤).
- ونقل عنه السيوطي في حاشيته على سنن النسائي أنه قال: "حديث النفس الذي يمكن رفعه لكن في دفعه مشقة لا إثم فيه؛ لهذا الحديث". وهذا عام في جميع حديث النفس.
- وبهذا يتبين للسائل أنّ هذا الحديث يشمل وسوسة الشيطان وحديث النفس وجميع الخواطر الواردة على القلب، مهما كان فحشها وشناعتها، وقد جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله إنّ أحداً يجد في نفسه يعرض بالشيء لأن يكون حمة أحب إليه من أن يتكلم به؟ فقال صلى الله عليه وسلم: «(اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَدَّ كَيْدَهُ إِلَى الْوَسْوَسةِ)»^(٥).
- ونقل السيوطي عن العزّ أنّه قال: الذي في النفس على قسمين: وسوسة، وعزائم. فالوسوسة هي حديث النفس وهو المتجاوز عنه فقط، وأمّا العزائم فكلّها مكلف بها.

والعزيمة أي ما جاء في خاطر وأخذ به الإنسان وهم أن ينقذه. فإن كان معصية وامتنع تكتب له حسنة. وإن كان معصية ومنع دونها أي حاول أن يفعلها ولكن منعه أمر خارج عن إرادته تكتب عليه سيئة من غير تبعاتها. وإن هم بالسيئة وفعلها تكتب عليه سيئة مع تبعاتها.

فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾^(٦).

آثارهم: أي تبعات الحسنات والسيئات. فمن علم إنساناً الصلاة وحثه عليها كان له مثل أجره كما صلى من غير أن ينقص من أجر المصلي شيء. ومن دلّ صديقه أو ابنه على معصية كان عليه وزرها كما ارتكبها من غير أن ينقص من وزر العاصي شيء.

(١) رواه البخاري في صحيحه، عن أبي هريرة، حديث رقم: ٦٦٦٤، كتاب: الأيمان والنذور، باب: إذا حثت ناسياً في الأيمان.
(٢) رواه الحاكم في المستدرک، عن أنس، حديث رقم: ١٩٢٧، كتاب: وباب: الدعاء، والتكبير، والتهليل، والتسبيح، الحديث صحيح.
(٣) رواه البخاري في صحيحه، عن ابن عمر، حديث رقم: ٦٦٢٨، كتاب: الأيمان والنذور، باب: كيف كانت يمين النبي صلى الله عليه وسلم.
(٤) ذكره العزّ بن عبد السلام في قواعد الأحكام في مصالح الأنعام، باب: فيما يعاقب من قبح الصفات، ج ١، ص ١٣٨.
(٥) رواه أبو داود وأحمد، وصححه الألباني.
(٦) سورة يس، الآية: ١٢.

قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً فَعَمِلَ بِهَا، كَانَ لَهُ أَجْرُهَا وَمِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، لَا يَنْقُصُ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْئًا وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَمِلَ بِهَا، كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ لَا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْئًا»^(١).

وفي رواية مسلم عن جرير بن عبد الله كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي صَدْرِ النَّهَارِ، قَالَ: فَجَاءَهُ قَوْمٌ حُفَاءَ عُرَاءٍ، مُجْتَابِي التَّمَارِ أَوْ الْعَبَاءِ، مُتَقَلِّدِي السُّيُوفِ، عَامَّتُهُمْ مِنْ مُضَرٍّ، بَلْ كُلُّهُمْ مِنْ مُضَرٍّ، فَتَمَعَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِمَا رَأَى بِهِمْ مِنَ الْفَاقَةِ، فَدَخَلَ ثُمَّ خَرَجَ، فَأَمَرَ بِلَالًا فَأَذَّنَ وَأَقَامَ، فَصَلَّى ثُمَّ خَطَبَ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ» إِلَى آخِرِ الْآيَةِ «إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا»^(٢)، وَالْآيَةُ الَّتِي فِي الْحَشْرِ: «اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مِمَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ»^(٣)، تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ، مِنْ دِرْهَمِهِ، مِنْ ثَوْبِهِ، مِنْ صَاعِ بُرِّهِ، مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ، حَتَّى قَالَ: وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، قَالَ: فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ بَصُرَةً كَادَتْ كُفَّهُ تَعْجِزُ عَنْهَا، بَلْ قَدْ عَجَزَتْ، قَالَ: ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ، حَتَّى رَأَيْتُ كَوْمَيْنِ مِنَ طَعَامٍ وَثِيَابٍ، حَتَّى رَأَيْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَهْلُلُ كَأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ»^(٤).

ما حكم من هم بالحسنة ولم يفعلها؟ وما حكم من هم بالسيئة ولم يفعلها؟ وما حكم من هم بالسيئة وفعلها؟
هذه بشارة عظيمة من الله تعالى، ورحمة، بشر بها الله تعالى المسلمين، بعد أن فرض عليهم الصلوات الخمس، على سيدنا محمد ﷺ بلا واسطة جبريل، عندما أسرى به إلى المسجد الأقصى، ثم عرج به إلى السموات العلى.
فمن هم بالسيئة وفعلها، كتبها الله عليه سيئة واحدة. أما من هم بالحسنة وفعلها، كتبها الله له عشر حسنات ويضاعفها إلى ما يشاء. وهذا من عظيم رحمته لعباده. وأما إذا أراد السيئة، ثم لم يعملها، عجزاً منه، لا خوفاً من الله تعالى، فهو عند الله آثم، كما يدل عليه حديث الصحيحين: «إِذَا التَّقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيِّئِهِمَا، فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ» قيل، يا رسول الله: هذا القاتل، ما بال المقتول؟ فقال، ﷺ: «أَنَّهُ أَرَادَ قَتْلَ صَاحِبِهِ»^(٥). ولكنته عجز عن ذلك.

والخلاصة أن الخاطر الذي يعرض للإنسان أنواع:

الأول: أن يكون ما يطرأ على النفس وسأوس لا قرار لها، ولا ركون إليها؛ فهذه لا تضر؛ بل هي دليل على كمال الإيمان؛ لأن الشيطان إذا رأى من قلب الإنسان إيماناً و يقيناً حاول أن يفسد ذلك عليه؛ ولهذا لما شك الصحابة إلى رسول الله ﷺ ما يجدونه في أنفسهم من هذا قال: «وَقَدْ وَجَدْتُمُوهُ؟» قالوا: نعم؛ قال: «ذَلِكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ»؛ وفي حديث آخر: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَدَّ كَيْدَهُ إِلَى الْوَسْوَسةِ».

الثاني: أن يهّم بالشيء المحرم، أو يعزم عليه، ثم يتركه؛ وهذا أنواع:

١/ النوع الأول: أن يتركه لله؛ فيثاب على ذلك، كما جاءت به السنة فيمن هم بسيئة فلم يعملها أثمها تكتب حسنة كاملة؛

(١) رواه ابن ماجه، عن جرير بن عبد الله، حديث رقم: ٢٠٣، أبواب السنة، ١٤- من سنن سنة حسنة أو سيئة.

(٢) سورة النساء، الآية: ١.

(٣) سورة الحشر، الآية: ١٨.

(٤) رواه مسلم في صحيحه، عن جرير بن عبد الله، حديث رقم: ١٠١٧، كتاب: العلم، باب: من سن سنة حسنة أو سيئة.

(٥) رواه البخاري في صحيحه، عن أبي بكر، حديث رقم: ٧٠٨٣، كتاب: الفتن، باب: إذا التقى المسلمان بسيفيهما.

قال الله تعالى في الحديث القدسي: (تركها من جرّائي)، أي من أجلي.

٢/ النوع الثاني: أن يهيم بها، ثم يتركها عزوفاً عنها؛ فهذا لا له، ولا عليه؛ لقول النبي ﷺ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى».

٣/ النوع الثالث: أن يتمناها، ويحرص عليها؛ ولكن لا يعمل الأسباب التي يحصلها بها؛ فهذا يعاقب على نيته دون العقاب الكامل، كما جاء في الحديث في فقير تمى أن يكون له مثل مال غني كان ينفقه في غير مرضاة الله؛ فقال النبي ﷺ: «فَهُوَ بَيْنَيْهِ؛ فَهُمَا فِي الْوُزْرِ سَوَاءٌ».

٤/ النوع الرابع: أن يعزم على فعل المعصية، ويعمل الأسباب التي توصل إليها؛ ولكن يعجز عنها؛ فعليه إثم فاعلها؛ لقول النبي ﷺ: «إِذَا تَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيِّئِهِمَا فَأَقَاتِلْ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ»، قالوا: يا رسول الله هذا القاتل؛ فما بال المقتول؟ قال: «إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ».

و لكن من ارتكب المعصية يحاسب عليها وعلى آثارها و ما يترتب عليها، أما من عزم على فعل المعصية و منع دونها لا يحاسب على آثار المعصية و ما يترتب عليها لأنها لم تقع.

الإيمان بالأنبياء والرسول من أركان العقيدة:

من أركان العقيدة الإسلامية الإيمان بجميع الأنبياء والرسول عليهم السلام، وكذلك الإيمان بجميع ما أنزل عليهم. ففي صفة عقيدة المؤمنين قال الله تعالى في سورة (البقرة): «آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ»^(١).
ويأمر الله نبيّنا محمدًا ﷺ ويأمرنا معه، فيقول تعالى في سورة آل عمران: «قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ»^(٢).

فعقيدة الإيمان بالله لا تنفك عن الإيمان برسله:

لأنّ من مقتضى الإيمان بالله تصديق المؤيدين بتأييد من عنده بمختلف صور التأييد الرباني، الذي لا يمكن أن يكون من الله تعالى إلا لرسله الدالّين عليه، المبلّغين لشريعته ودينه بصدق.
ولأنّ من مقتضى الإيمان بالله تصديقه في كلّ ما يخبرنا به، وهذا يقتضي الإيمان برسله الذين أخبر عنهم في كتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ثم إنّ الإيمان بواحد من الرسل لا ينفك عن الإيمان بجميع الأنبياء والرسول الصادقين، فوجب الإيمان في الكلّ واحد. لذلك يعلن المسلم دائماً وفق عقيدته - التي متى أخلّ بها كفر - : أنّه لا يفرق بين أحد من رسل الله وأنبيائه في الإيمان، فهو يؤمن بهم جميعاً دون تفریق، ويعظّمهم جميعاً، لأنهم أنبياء الله المصطفين عنده.

القضاء والقدر:

هل الإنسان مخير أم مسير؟ كيف يكون الإنسان مخيراً، وجميع ما يفعل مقدّر عليه؟ وما المخلص في نفي مهمة التسيير؟
القضاء: هو علم الله تعالى منذ الأزل بالأشياء كلها، وكيف ستكون في المستقبل.

القدر: هو إيجاد الله تعالى هذه الأشياء بالفعل، طبقاً لعلمه الأزلي.

الإنسان مخير في كل الأفعال التي يعملها بإرادته واختياره، مثل القيام، والجلوس، والأكل، والشرب، والطاعة، والعصيان. والإنسان مخير بمشيئة الله تعالى، أي، أن الله تعالى شاء أن يتمييز الإنسان عن باقي المخلوقات بالعقل والإرادة، ولذلك، فهو محاسب على كل أفعاله الاختيارية. أمّا الأمور التي ليس للإنسان فيها خيار، مثل ولادته، وموته، ووقوعه، وارتعاش يديه عند المرض، فهو مجبر عليها. ولذلك، فهو لا يحاسب عليها.

القضاء، كما عرفناه، علم الله الأزلي بالأشياء، كيف ستكون. وعلم الله، صفة كشف وإحاطة، لا إجبار فيها ولا تأثير. فالله علم أن فلاناً سيعمل الخير بإرادته واختياره، وأن فلاناً سيعمل الشر بإرادته واختياره. وعلم الله بهذه الأمور ليس معناها أن الله يجبر عباده على فعل هذه الأشياء، إن خيراً أو شراً، إنما يخلق الله تعالى هذه الأفعال عند كسبها، فإذا ما هم الإنسان بالصلاة، خلقها الله تعالى على يديه، وإذا هم بشرب الخمر، خلق الله تعالى على يديه شرب الخمر. ولهذا، فالإنسان محاسب على ما يكسب من الأفعال التي يخلقها الله تعالى، عند تعاطيه لأسبابها، والتي فعلها الإنسان بملء إرادته، واختياره. فإن كانت خيراً، خلق الله فعل الخير على يديه، وارتضاه له، وأثابه عليه. وإن كانت شراً، خلق الله فعل الشر على يديه، ولم يرضه له، وعاقبه عليه. قال تعالى: ﴿لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾^(١).

وفي متن جوهره التوحيد

وَقُدْرَةُ إِرَادَةٍ وَغَايَرُثْ أُمُورًا	وَعِلْمًا وَالرَّضَا كَمَا ثَبُثْ
فَقُدْرَةٌ بِمَمَكْنٍ تَعْلَقُثْ	بَلَا تَنَاهِي مَا بِهِ تَعْلَقُثْ
وَوَحْدَةٌ أَوْجِبُ لَهَا وَمَثَلُ	ذِي إِرَادَةٍ وَالْعِلْمُ لَكُنْ عَمَّ ذِي
وَوَاجِبُ إِيْمَانُنَا بِالْقَدْرِ	وَبِالْقَضَا كَمَا أَتَى فِي الْخَبْرِ

أمّا عقيدة المسلمين، فيما يختص بالقضاء والقدر، فهي أن نعتقد ونجزم بأن جميع أفعالنا وحركاتنا، سواء كانت خيراً أو شراً، هي واقعة بإرادة الله تعالى، وتقديره، ولكتنا نكتسب أعمالنا بإرادتنا الجزئية، التي خصصها الله تعالى لنا. فإن اخترنا الخير، أثبتنا عليه، وإن اخترنا الشر، عوقبنا عليه. ولذلك، لا يجوز علينا مطلقاً، نسبة الظلم لله تعالى، لأن الله تعالى، ليس بظلام للعبيد، وهو يتصرف بملكه، كيفما يشاء. ولكي نوضح الصورة أكثر، نذكر المثل التالي: لنفرض أن هنالك رجلين يمثلان فيلماً سينمائياً خرافياً؛ زيد وسعيد. ولنفرض أن زيداً استطاع، بطريقة ما، أن يسبق سعيداً بالزمن، بخمس دقائق. ولنفرض أن سعيداً كان داخل غرفة زجاجية كبيرة، يفعل فيها ما يشاء، وزيداً يجلس خارج هذه الغرفة، يراقبه، وينظر إلى كل أفعاله، وأقواله؛ يراها ويسجلها، وسعيداً لا يعلم بذلك. وبما أن زيداً سابق على سعيد بالزمن، بخمس دقائق، كانت الساعة مع زيد الواحدة وخمس دقائق، وكانت الساعة مع سعيد الواحدة تماماً. فنظر زيد فوجد أن سعيداً يشرب كأساً من الخمر، في الساعة الواحدة وخمس دقائق، فأمسك زيد قلمه، وسجل في كتابه أن سعيداً

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

سيشرب الخمر في الساعة الواحدة وخمس دقائق. ولكن، الساعة مع سعيد ما تزال الواحدة، وسعيد لم يفعل شيئاً بعد. ولكن بما أن زيداً سابق على سعيد بالزمن، علم ما سيعمله سعيد بعد خمس دقائق. ولما أصبحت الساعة الواحدة وخمس دقائق مع سعيد، أمسك سعيد بالفعل، كأساً من الخمر، وشربه. هنا سؤال: هل كتابة زيد في كتابه أن سعيداً سيشرب كأساً من الخمر في الساعة الواحدة والخمس دقائق أجبرت سعيداً على ذلك؟ أم أن كتابة زيد هي مجرد علمه بما سيفعله سعيد، لأنه سبقه بالزمن؟ وهو مطلع عليه؟ ومن البديهي أن زيداً لم يجبر سعيد على شيء. والله تعالى المثل الأعلى، فالله تعالى منزّه عن الزمان والمكان. لا يحده زمان، فهو يعلم ما كان، وما سيكون. وعلم الله صفة من صفاته الأزلية، فالله علم الأشياء كلّها، وكيف ستكون، وماذا ستفعل، منذ الأزل، وقبل إيجاد هذه الأشياء. والله كتب ما سيحدث في هذا الكون، وكتب أعمالنا في اللوح المحفوظ. وعلم الله الأزلي صفة كشف وإحاطة، لا إجبار فيها ولا تأثير. فالله بعلمه لأحوالنا وأعمالنا، وكتابته لها في اللوح المحفوظ، لم يُجبرنا على فعل هذه الأفعال، التي، إنّما فعلناها بإرادتنا ومشيتنا، التي شاء الله أن يميزنا بها عن غيرنا من المخلوقات. ولذلك، حق علينا الحساب على ما اكتسبنا من الأعمال، التي فعلناها بمشيئتنا، وإدراكنا لعواقبها.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾^(١).

وقال: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾^(٢) أي إنه، من طلب الهداية من الله تعالى، خلق الله تعالى الهداية على يده. ومن طلب الضلال، خلق الله تعالى الضلال على يده. ولنضرب مثلاً آخر، يقرب لنا الصورة: لنفرض أن رجلاً ذهب إلى عراف (ومن المعلوم أنه لا يجوز شرعاً الذهاب إلى العراف، فمن صدق أن العراف يعلم شيئاً من الغيب، فقد كفر، لأنه لا يعلم الغيب إلا الله تعالى. ومن ذهب إلى عراف يسأله، ولم يصدقه، كان مرتكباً لكبيرة من الكبائر) فقال له هذا العراف أن أخاك سيشتري، بعد ستة أشهر، سيارة جديدة من نوع كذا، وصفة كذا، ولكتها ستسرق منه بعد شهرين، والذي سيسرقها هو زيد من معارفك، ولكن، لا تخبره بالأمر. ليكن الأمر سراً بيننا. وبعد مرور الزمن، تبين أنه حصل تماماً كما أخبره العراف. نحن نعلم أن العراف لا يعلم الغيب، ولكن، لنفرض هنا، ولنقرب الصورة فقط، أن العراف كان يعلم ماذا سيحصل بالفعل مع هذا الرجل. هنا، نطرح سؤالاً: هل أجبر العراف أخ ذلك الرجل أن يشتري السيارة الفلانية، من نوع كذا، وصفة كذا؟ وهل أجبر العراف زيداً من معارفه أن يسرق السيارة بعد شهرين؟ طبعاً، كلّ ما هنالك، أن هذا العراف (فرضاً) اطلع على الغيب، وعلم ما سيكون، علماً لا إجبار فيه. فلله المثل الأعلى. بهذا، تبين معنا أن ما كتبه الله تعالى علينا في اللوح المحفوظ، أو في أم الكتاب، هو ما سنفعله باختيارنا فقط، دون أي إجبار منه، تعالى لنا. فنحن، إذا شئنا أن نفعل كذا، خلق الله الفعل على يدنا، وأثبتنا عليه، إن كان طاعة، وعاقبنا عليه، إن كان معصية. هذا شرح قولنا "أن علم الله تعالى صفة كشف وإحاطة، لا إجبار فيها ولا تأثير".

وفي شرح العقيدة الطحاوية

حقيقة القدرة (تكون مع الفعل) هي صفة يخلقها الله تعالى عند قصد اكتساب الفعل بعد سلامة الأسباب والآلات فإن قصد فعل الخير خلق الله تعالى قدرة فعل الخير، وإن قصد فعل الشر خلق الله قدرة فعل الشر وكان هو المضيّع لقدرة فعل الخير فيستحقّ الذم والعقاب.

(٢) سورة مريم، الآية: ٧٦.

(١) سورة محمد، الآية: ١٧.

(١) سورة النحل، الآية: ٩.

على طاعة الله تعالى. ولكنّه تعالى لم يشأ ذلك، بل شاء أن يضع الإنسان مختاراً، بين واقعين يتجاذبانه، وهما النفس بشهواتها، والعقل بتدبيره، كي يتجلّى في طاعته لله تعالى، معنى الجهاد والتكليف، وإلّا لما أحرز المجاهدون، والمستقيمون على الطاعة، أي أجر على جهادهم. إذ، لا جهاد حينئذ أصلاً.

والآيات الدالّة على أنّ الإنسان مخير، مريد بالنسبة للتصرّفات الاختيارية، كثيرة، ومنها قوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾^(١).

وقوله: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾^(٢).

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾^(٣).

إلى ما هنالك من الآيات الكثيرة الأخرى، التي تنصّ على أنّ مناط الأجر والعقاب، إنّما هو كسب الإنسان، أي، انبعاثه نحو الشيء الذي أمر به، أو نهى عنه. وإنّما شاء الله تعالى أن يجعل خلقه وقدرته وفقاً لانبعاثاتهم، حتى يكون ذلك بمثابة السجلّ، الذي تثبت فيه هذه الانبعاثات، مُجسّدة في مظهر الفعل الذي ظهرت فيه.

وفي شرح العقيدة الطحاوية

(وأفعال) جميع (العباد) إنّما (هي) بخلق الله تعالى وكسبٍ من العباد).

صور من احتمالات الخلق الممكنة:

إذا ثبت لدينا ما يلي:

١. أنّ علم الله ﷻ محيط بكلّ شيء بما كان وبما هو كائن وبما سيكون.
٢. وأنّ إرادته ﷻ حرة مختارة لا يؤثّر عليها مؤثّر، ولا يكرهها مكره، وفي مقدورها أن تتعلّق بكلّ أمر ممكن.
٣. وأنّ قدرته سبحانه على إيجاد ما تتعلّق به إرادته وقدرته على إعدامه قدرة تامة كاملة؛ لا تقف دونها عوائق ولا حدود.
٤. وأنّ حكمته تعالى بالغة في اختيار الأكثر كمالاً وإبداعاً ومصلحة، دون إلزام أو إكراه، وإنّما هي من توابع كالاته تعالى.

س: هل نجد تنافياً مع صفة عدل الله وحكمته - بالنسبة إلى هذا المخلوق الذي لم يمنح إرادة حرة، ولا قدرة مستطاعة على تنفيذ أي شيء مما يريد أو توجيهها لبعض ما يريد - أن يكلفه الخالق ببعض الأعمال التي لا يستطيعها، وليس لديه الإرادة الحرة التي يستخدمها في توجيه القدرة إلى العمل والقيام بالفعل المأمور به أو الكفّ عن الفعل المنهي عنه؛ ثم يقرر عليه العقوبة إذا لم يطع الأمر ولم يقم بتنفيذ التكليف؟

ج: إنّنا نعلم من صفات الخالق جلّ وعلا العدل والحكمة، ولم نعهد في عدل الله أو حكمته أن يكلف مخلوقاً من مخلوقاته فوق وسعِهِ وطاقته تكليفاً يراد منه التنفيذ الذي يعجز عنه؛ ثمّ يعاقبه على المخالفة أو التقصير، وقد ثبت بالنصّ أيضاً أنّ الله لا يكلف نفساً إلا وسعها وإلا ما أتاها.

قال الله تعالى في سورة البقرة: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾^(٤).

وقال تعالى في سورة (الطلاق): ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا﴾^(٥).

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٢٠.

(٢) سورة غافر، الآية: ١٧.

(٥) سورة الطلاق، الآية: ٧.

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

وقال تعالى في سورة الأنعام ١٥٢ و الأعراف ٤٢ والمؤمنون ٦٢: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

حقيقة تاريخية دينية: رب واحد ودين واحد:

أرسل الله تعالى جميع الأنبياء والمرسلين بدين الإسلام. فهو سبحانه رب واحد، أرسل جميع الرسل بدين واحد. وجميع الأنبياء والمرسلين ﷺ جاؤوا بدين الإسلام، ودانوا به منهم: سيدنا آدم، وسيدنا نوح، وسيدنا إبراهيم، وسيدنا إسحاق، وسيدنا يعقوب (إسرائيل)، وسيدنا يوسف، وسيدنا موسى، وسيدنا عيسى، وسيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وركنا الإيمان والإحسان (أي: العقيدة والتزكية والأخلاق) لم يتغيرا من نبي إلى نبي. لذلك نجد جميع الأنبياء من لدن سيدنا آدم ﷺ مروراً بسيدنا إبراهيم وسيدنا موسى وسيدنا عيسى، إلى سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين قد جاؤوا بالعقيدة عينها "الإيمان"، لم يتغير منها شيء واحد، وجاؤوا أيضاً بالتزكية والأخلاق نفسها "الإحسان".

أما الشريعة، أي: الأحكام التكليفية المتعلقة بالحلال والحرام، الخاصة بالجسد، فقد أنزل الله تعالى على كل رسول شريعة تناسب قومه وعصره. ولما كان سيدنا محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، وكان مرسلاً إلى الإنس والجن والعوالم كافة، وجاءت شريعته صالحة لكل زمان ومكان، من زمن بعثته ﷺ إلى يوم الدين. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾^(١).

وقال عن رسوله ﷺ: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَا جَا﴾^(٢).

فكان كل نبي مرسلاً إلى قومه وأهل زمانه خاصة، ولا يوجد تغيير في الدين بين رسول ورسول بل بعض تفاصيل الشريعة وفروعها فقط، بما يتلاءم مع زمان قوم ذلك النبي ومكانهم وحالهم في زمن نبوته. فسيدنا موسى ﷺ أمر قومه بني إسرائيل بالصلاة والصيام، ولكن بكيفية تختلف عن صلاتنا وصيامنا، وحرّم عليهم أشياء، ثم جاء عيسى ﷺ ليحلّ لهم بعض الذي كان حرّم عليهم، ويثبتهم على الإيمان والإحسان اللذين جاء بهما سيدنا موسى ﷺ.

قال الله تعالى على لسان سيدنا عيسى ﷺ: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَأَجَلْ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ...﴾^(٣).

إذا، الأنبياء كلهم دينهم الإسلام، وقد بين الله تعالى ذلك بوضوح في كتابه العزيز: حيث قال عن سيدنا إبراهيم ﷺ: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٤).

وقال على لسان سيدنا موسى ﷺ: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُّسْلِمِينَ﴾^(٥). وقال عن سيدنا عيسى ﷺ: ﴿فَمَا أَحْسَ عَيْسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّكَ مُسْلِمُونَ﴾^(٦).

القرآن الكريم ينص بكل وضوح على أن دين سيدنا إبراهيم ﷺ الإسلام، ودين سيدنا موسى ﷺ الإسلام، ودين سيدنا المسيح عيسى ابن مريم ﷺ الإسلام، ودين سيدنا محمد ﷺ هو الإسلام. إنه دين واحد من رب واحد. أما تسمية دين

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٥٠.
(٦) سورة آل عمران، الآية: ٥٢.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٤٨.
(٥) سورة يونس، الآية: ٨٤.

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٩.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ٦٧.

سَيِّدِنَا مُوسَى ﷺ بِالَّذِينَ الْيَهُودِيّ؛ فَلَمْ يَكُنْ هَذَا فِي زَمَنِهِ، بَلْ حَصَلَ بَعْدَ وَفَاتِهِ، وَكَذَلِكَ تَسْمِيَةُ دِينِ سَيِّدِنَا عِيسَى ﷺ بِالْمَسِيحِيَّةِ، لَمْ يَكُنْ فِي أَثْنَاءِ حَيَاتِهِ عَلَى الْأَرْضِ، وَإِنَّمَا حَصَلَ بَعْدَ أَكْثَرِ مِنْ ثَلَاثِينَ سَنَةً مِنْ مُحَاوَلَةِ صَلْبِهِ ﷺ، وَرَفَعَ اللَّهُ تَعَالَى إِيَّاهُ إِلَى السَّمَاءِ، وَمَا زَالَ سَيِّدِنَا عِيسَى ﷺ حَيًّا فِي السَّمَاءِ وَسِينَزِلُ إِلَى الْأَرْضِ فِي آخِرِ الزَّمَانِ. وَمَعْنَى ذَلِكَ بَأَنَّ دِينَ الْأَنْبِيَاءِ وَاحِدٌ هُوَ الْإِسْلَامُ.

لَذَلِكَ أَمَرَنَا اللَّهُ تَعَالَى أَنْ نُؤْمِنَ بِمَجْمِيعِ كُتُبِهِ: التَّوْرَةُ الْمُنَزَّلَةُ عَلَى سَيِّدِنَا مُوسَى ﷺ، وَالزَّبُورُ الْمُنَزَّلُ عَلَى سَيِّدِنَا دَاوُدَ ﷺ، وَالْإِنْجِيلُ الْمُنَزَّلُ عَلَى سَيِّدِنَا عِيسَى ﷺ، وَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ الْمُنَزَّلُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ. أَمَرَنَا اللَّهُ تَعَالَى أَنْ نُؤْمِنَ بِالتَّوْرَةِ الْأَصْلِيَّةِ الْمُنَزَّلَةِ عَلَى سَيِّدِنَا مُوسَى ﷺ، وَلَيْسَ بِالتِّي حُرِّفَتْ أَوْ تُرْجِمَتْ، وَلِذَلِكَ عَلَيْنَا أَنْ نُؤْمِنَ بِالْإِنْجِيلِ الْأَصْلِيِّ الْمُنَزَّلِ عَلَى سَيِّدِنَا عِيسَى ﷺ، وَلَيْسَ بِالَّذِي حُرِّفَ أَوْ تُرْجِمَ.

فَلَا يَصِحُّ إِيْمَانُ لِإِنْسَانٍ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ أُمَّةِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ مَا لَمْ يُؤْمِنَ بِمَجْمِيعِ الرُّسُلِ الْمُرْسَلَةِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى وَبِمَجْمِيعِ الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿أَمَنْ الرُّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾^(١).

وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى لَنَا فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مَقَاطِعَ مِنَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ * بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى، إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾^(٢) [أَي هَذَا الْكَلَامُ السَّابِقُ مَذْكُورٌ فِي الصُّحُفِ الْأُولَى].

وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ أَنَّ النَّبِيَّ مُحَمَّدًا ﷺ وَأَصْحَابَهُ مَذْكُورُونَ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مَنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾^(٣).

في الأمر والنهي

العمل بالآيتين:

- اقْرَأِ الْآيَتَيْنِ آخِرَ الْبَقَرَةِ فِي لَيْلَتِكَ؛ ففِيهِمَا كَفَايَةٌ لِمَنْ قَرَأَهُمَا، ﴿أَمَنْ الرُّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾.
- احْرَصِ الْيَوْمَ بَعْدَ فَرَاغِكَ مِنْ أَيِّ طَاعَةٍ وَعَمَلٍ خَيْرٍ أَنْ تَسْأَلَ اللَّهَ تَعَالَى الْمَغْفِرَةَ، ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾.
- اْعْمَلِ الْيَوْمَ عَمَلًا صَالِحًا بِلِسَانِكَ، أَوْ مَالِكَ، أَوْ جَوَارِحِكَ، ثُمَّ ادْعُ بِدَعَاءٍ؛ فَهُوَ أَرْجَى لِقَبُولِ دَعَائِكَ، ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾.

خواتيم سورة البقرة

باب الحث على قراءة سور وآيات مخصوصة

(٣) سورة الفتح، الآية: ٢٩.

(٢) سورة الأعلى، الآيات: ١٤-١٩.

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٥.

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: بينما جبريل عليه السلام قاعد عند النبي صلى الله عليه وسلم سمع نقيضاً من فوقه، فرفع رأسه فقال: «هَذَا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فُتِحَ الْيَوْمَ وَلَمْ يَفْتَحْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ» فنزل منه ملك فقال: «هَذَا مَلَكٌ نَزَلَ إِلَى الْأَرْضِ لَمْ يَنْزَلْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ فَسَلِّمْ وَقَالَ: أَبَشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيَهُمَا، لَمْ يُؤْتِيَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ: فَاتِحَةُ الْكِتَابِ، وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلَّا أُوتِيَتْهُ»^(١).

في الأخلاق والآداب

التوجيهات:

- السمع والطاعة لله سببٌ لنيل مغفرته سبحانه، ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾.
- موالة الله سبحانه وتعالى سببٌ للانتصار على الأعداء، ﴿أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.
- الحكمة: لا تطلب عوضاً على عملٍ لست له فاعلاً، يكفي من الجزاء لك على العمل أن كان له قابلاً.

في السيرة والشّمائل

وفيه إشارة إلى عظيم قدر سيدنا محمد رسول الله وشّمائله المجيدة وسعة علمه صلى الله عليه وسلم وكثرة علومه التي لا يحصيها إلا الله تعالى الذي أفاضها عليه.

من ذلك: علمه صلى الله عليه وسلم بخصائص الآيات القرآنية، كما ورد عن النعمان بن بشير عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ كِتَابًا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْفَيِّ عَامٍ، أَنْزَلَ مِنْهُ آيَتَيْنِ، خَتَمَ بِهِمَا سُورَةَ الْبَقَرَةِ، لَا يَقْرَأُ فِي دَارٍ ثَلَاثَ لَيَالٍ فَيَقْرُبُهَا شَيْطَانٌ»^(٢).

في السلوك

الإشارة: يفهم من سر الآية أنّ من شقّ عليه أمر من الأمور، أو عسرت عليه حاجة، أو نزلت به شدة أو بليّة، فليرجع إلى الله، ولينطرح بين يدي مولاه، وليعتقد أنّ الأمور كلّها بيده فإنّ الله تعالى لا يخليه من معونته ورفده، فيخفف عنه ما نزل به، أو يقوّيه على حمله، فإنّ الصحابة رضي الله عنهم لما شقّ عليهم المحاسبة على الخواطر سلّموا وأذعنوا لأمر مولاهم، فأنزل عليهم التخفيف، وأسقط عنهم في ذلك التكليف، وكلّ من رجع في أموره كلّها إلى الله قضيت حوائجها كلّها بالله. «من علامات النجاح في النهايات الرجوع إلى الله في البدايات».

في الإعجاز العلمي

(١) رواه مسلم في صحيحه، عن ابن عباس، حديث رقم ٨٠٦، كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل الفاتحة، وخواتيم سورة البقرة.

(٢) رواه الحاكم في المستدرک، عن النعمان بن بشير، حديث رقم: ٣٠٣١، كتاب: التفسير، باب: بسم الله الرحمن الرحيم من سورة البقرة، الحديث صحيح.

وهذه الآيات (خواتيم سورة البقرة) وردت فيها نصوص تدل على فضلها العظيم؛ منها:

أَتَمَّا مِنْ كُنْزٍ تَحْتَ الْعَرْشِ.. روى أحمد عن أبي ذر رضي الله عنه قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «أُعْطِيَتْ خَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ مِنْ نَيْتٍ كُنْزٍ مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ وَلَمْ يُعْطَهُنَّ نَبِيٌّ قَبْلِي»^(١).

وروى ابن حبان عن حذيفة رضي الله عنه قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «فُضِّلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلَاثٍ: جُعِلَتِ الْأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِدًا، وَجُعِلَ تُرْبَتُهَا لَنَا طَهُورًا، وَجُعِلَتْ صُفُوفُنَا كَصُفُوفِ الْمَلَائِكَةِ، وَأُوتِيَتْ هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ مِنْ كُنْزٍ تَحْتَ الْعَرْشِ، لَمْ يُعْطَهُ أَحَدٌ قَبْلِي، وَلَا يُعْطَى أَحَدٌ بَعْدِي»^(٢).

أَنْ مِنْ قَرَأَهَا فِي لَيْلَةِ كَفْتَاهُ. في "الصحيح"، عن أبي مسعود الأنصاري البصري: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «مَنْ قَرَأَ الْآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي لَيْلَةِ كَفْتَاهُ»^(٣) أَي مِنْ بَعْدِ أَذَانِ الْعِشَاءِ.

وهما من قوله تعالى: ﴿أَمَّنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ﴾ إلى آخر السورة. قيل: معناه كفتاه عن قيام الليل، فيكون معنى (من قرأ) من صلى بهما أو من قرأهما بعد صلاة العشاء، وقيل: معناه كفتاه بركة وتعوذاً من الشياطين، والمضار، ولعل كلا الاحتمالين مراد.

(١) رواه أحمد في مسنده، عن أبي ذر، حديث رقم: ٢١٣٤٤، مسند: الأنصار، مسند: حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، الحديث صحيح لغيره.
(٢) رواه ابن حبان في صحيحه، عن حذيفة، حديث رقم: ١٦٩٧، كتاب: الصلاة، باب: شروط الصلاة، الحديث إسناده صحيح.
(٣) رواه البخاري في صحيحه، عن أبي مسعود، حديث رقم: ٥٠٠٩، كتاب: فضائل القرآن، باب: فضل سورة البقرة.